

فاعلية الإيقاع في دلالات الخطاب القرآني الفاصلة القرآنية « أنموذجا »

واكي راضية، جامعة زيان عاشور الجلفة
خليفة محمد، جامعة عما رثليجي الأغواط

ملخص:

في هذا البحث نحاول توضيح أهمية الفاصلة القرآنية في التوجيه الدلالي للخطاب القرآني، فدارسوا الإعجاز الفاصلة وظفوها كأداة للإعجاز الصوتي وكأهم عنصر في الموازنات الأسلوبية، والمفسرون اعتبروها أداة لانساق النصوص ومساهم قوي في انسجام الخطاب القرآني، وعلماء القراءات اهتموا ببناء حروفها وتجويد نطق مدودها وأماكن وقفها بين الوجوب والاستحسان والكراهة والنهي، مراعين ما تحدثه من توقيعات مؤثرة وإنتاج للدلالات .

Obstacle

L'efficacité du rythme dans la sémantique du discours Coranique EL FASILLAT Coranique» modèle«

Dans cette recherche ,nous essayons de préciser l'importance de la FASILLAT Coranique dans la direction sémantique du discours coranique ,miracles coraniques sont le plus important dans les budgets stylistics ,et les commentateurs considéraient comme un outil pour la cohérence des textes et contribue fortement à l'harmonie du discours coranique ,et des lectures scientifiques ont intéressé par lettres de construction et d'améliorer les bandes Mdodha et lieux pour arrêter entre obligatoire et applaudissements et la haine et interdisant ,en gardant à l'esprit ce qui a causé les signatures de production influent et de la sémantique.

مدخل:

كان القرآن الكريم منطلقاً أساسياً ومباشراً لثلاث مجموعات من الدراسات، هي: الدراسات اللغوية، والبلاغية و القرآنية، لذلك فقد ظهرت بؤادر الدراسات الصوتية بنسب متفاوتة في كل من هذه الدراسات الثلاثة، يقول الدكتور نعيم اليافي: «ليس بين أيدينا دراسة تامة عن الموسيقى في القرآن قديماً ولا حديثاً، ذلك أن ملاحظة هذا العنصر الجمالي في الكتاب الكريم، ثم إفراده بالدراسة مسألة لم تخطر على بال أحد، أو خطرت ثم جعل بينها وبين أن تتحقق أمور، ما نجده مجرد لمعان أو آراء متفرقة عن اعتماد القرآن على عنصر النغم تناثرت في تضاعيف أحاديث المؤلفين عن الإعجاز وغير الإعجاز، وهي لا تُشكّل في مجموعها بحثاً قائماً بذاته متلاحماً ومتكاملاً»¹.

ولعله كان في الأول توجّس وريبة من الخوض في فكرة الإيقاع القرآني حسب رأينا لسببين:

*1 السبب الأول شرعي أخلاقي: ما ورد من نصوص شرعية فيها تكريه للملاهي والغناء وهوشق الإيقاع مثل قول النبي صلى الله

عليه وسلم رواية عن أبي هريرة أنه قال: « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن »²، وكما ورد في قول الإمام بدر الدين الزركشي: «أهل العروض مجمعون كما قال ابن فارس على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع، إلا أن صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالنغم، وصناعة العروض تقسم بالحروف المتنوعة، فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع، والإيقاع ضرب من الملاهي لم يصلح ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال « لست من ددٍ ولا ددٌ مَيَّ »³.

2* السبب الثاني عقدي: له علاقة بعلم التوحيد وصياغة نظرية الإعجاز حيث أخذت هذه النظرية « حيّزها الواضح في مجال العقيدة، وعلم الكلام، وفي مجال التفسير، وأثّرت في بحوث اللّغة والبلاغة والنقد، بحيث تمحورت الجهود حول إثبات الخصائص الذاتية للنص القرآني، باعتباره نصاً معجزاً »⁴ وقد توجه اهتمام علماء هذه الحقبة المهمة في هذه الدراسات الإعجازية إلى الاهتمام بـ « نظم القرآن » وكانت السيطرة واضحة لعلماء الفكر الأشعري المعروفين بالانتصار لمسألة المعنى، فحاولوا التنظير لبلاغة الإعجاز « بوصفها البلاغة التي تضمن تفوق الخطاب القرآني، وتقضي كلّ العناصر التي تجلّى فيها الخطاب البشري، أو ظهرت له فيه أنساق متميّزة مثل الوزن »⁵ والسجع؛ فنلاحظ عالماً مثل عبد القاهر الجرجاني لم يولّ لعنصر الوزن داخل نظرية النظم أي بال، بل ذمّه وسلبه المزيّة، حتّى كاد يزهد في الاشتغال بالشعر بسبب أوزانه وتقفيته، ذاكراً بعض أحاديث رسول الله⁶ وزعم « أنه إنّما كره الوزن لأنّه سبب لأن يتغنى به في الشعر ويبتلى به »⁷، كما اعتبر الحسن والقبح في المحسنات البديعية لا يمكن إيعازه للجرس الصوتي في الألفاظ لأننا لا نجد « تجنيساً مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتّى يكون المعنى الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتّى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً »⁸.

وفي خضم هذه الهجمة على الإيقاع - والتي لها مشروعيتها الدينية في تلك الفترة التاريخية المليئة بالفتن - حتى ينزّه القرآن من قول الشعر، وإقصاء المستوى اللفظي الصوتي حتّى ينزّه من فكرة الخلق والصرفة، ظهرت دراسات رائدة في كتب الإعجاز وعلوم القرآن أكدت أنّ الإيقاع هو الحاوي العميق للمعنى والمنتج للدلالات لأن أصحابها كانوا واعين كلّ الوعي بأن للقرآن إيقاعه المعجز الظاهر والخفي وسنحاول كشف كيفية تلقيهم لإيقاع القرآن من خلال دراساتهم للفاصلة القرآنية، وآليات اشتغالها الإيقاعية الصوتية وتأثيراتها الدلالية في المستويات السياقية التداولية .

أولاً: الفاصلة بين المفهوم والوظيفة

1-1 تعريف الفاصلة:

الفاصلة هي الكلمة الأخيرة في الآية، ولم يكن مناسباً أن يطلق عليها لفظ السّجع أو القافية تنزيهاً للقرآن الكريم أن يكون شبيهاً بحديث الكهان الذي ارتبط بالسّجع.⁹

• تعريف الفاصلة لغة: «الفاصلة مأخوذة من الفعل (فصل) وجمعها فواصل وهي الخزرة تفصل بين الخرتين في العقد. الفاصل: الحاجز بين الشّئين فصل بينهما يفصل فصلاً فانفصل وفصلت الشّيء أي قطعتة»¹⁰.

والفاصلة «الخرزة التي تفصل بين الخرتين في النّظام، والفصل: القضاء بين الحقّ والباطل»¹¹.

• الفاصلة اصطلاحاً:

▪ قال «أبو عمر الدّاني»: «الفاصلة كلمة آخر الجملة»¹².

- قال الرَّماني: «الفاصلة حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إلهام المعاني».¹³
 - قال أبو بكر الباقلاني: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إلهام المعاني».¹⁴
 - قال ابن منظور: «وأخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر - جلّ كتاب الله عزّ وجلّ - واحدتها فاصلة».¹⁵
 - قال الزركشي في البرهان - ونقله عنه السيوطي في الإتقان -: «هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقريئة السجع».¹⁶
- ويضيف الزركشي قوله: «وتقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها. وهي الطريقة التي يبين بها القرآن سائر الكلام وتُسَمَّى فواصل، لأنّه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أنّ آخر الآية قد فصل بينها وبين ما بعدها أخذاً من قوله تعالى: «كتاب فُصِّلَتْ آياته» (فُصِّلَتْ : 3) ولم يُسمَّوها أسجاءً ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً».¹⁷
- ويفهم من هذا النصّ أنّ الفاصلة تقع في آخر الآية ويوقف عليها إذ بها يتم الإيقاع ويكتمل المعنى، ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً، لأنّ الله تعالى لما سلب عن القرآن اسم الشعر وجب سلب القافية أيضاً لأنّها منه وخاصة به في الاصطلاح وهذا ثابت بالنصّ الصريح، ومتى انتفى عنه الشعر انتفت القافية تبعاً لذلك.
- ثمّ نعود مجدداً لنطرح مجموعة من التّساؤلات:
- هل الفاصلة هي الحرف الأخير في الآية؟ أم الكلمة الأخيرة أم هي رؤوس الآي؟
- يقول الباقلاني: «... ثمّ الفواصل قد تقع على حروف متجانسة، كما قد تقع على حروف متقاربة»⁸¹، وعليه تصبح الفواصل عنده مبنية على الحرف الأخير من الآية.
- أما أبو عمرو الداني فيقول: «والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس آية، وكذلك الفواصل يُكُنّ رؤوس آية وغيرها، وكلّ رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية».¹⁹
- يتّضح من هذا التعريف أنّ الداني يقصد برأس الآية آخرها، وأنّها تتحدّد بنهاية المعنى وليس بنهاية الآية، فقد ينتهي المعنى عند آخر الآية وهو الغالب في القرآن، وقد ينتهي قبل ذلك.²⁰
- ومن تعريفات المحدثين قول الدكتور أحمد بدوي: «تلك الكلمة التي تختتم بها الآية من القرآن».²¹
- وقول الدكتور عيد محمّد شبايك: «الفواصل هي الكلمات التي تقع في نهاية الآيات، وقد تماثل في أواخر حروفها أو تتقارب و يحسن الوقف عندها حيث يستدعيها السياق مبنى ومعنى لأنّ وجودها به ومن أجله وهي تفصل بين معنيين إمّا فصلاً تامّاً أو غير تام بمعنى أنّه قد ينتهي المعنى عندها أو لا ينتهي».²²
- والملاحظ في جملة التعريفات السابقة أنّها تتفق في الخصائص الآتية:
- موقع الفاصلة في آخر الآية.
 - وجود التشاكل بين حروفها ومقاطعها.
 - ارتباطها بالمعنى، فهي أساس في إنشاء المعاني، ولا تكون المعاني تابعة لها، وهي بذلك تخالف الأسجاع، فالفاصلة تابعة للمعنى في تكميله وتكميله، فالمعنى لا يتم إلّا بها، وهكذا تبرز قيمتها، بينما الأسجاع فليست كذلك، فالمعاني تابعة لها.
 - ارتباطها بجرس صوتي يبعث في النّفس روح الانقياد والطّاعة للمعنى المتضمّن في اللفظ القرآني، وهذه الخاصية لا

تتوافر في كتاب كما تتوافر في القرآن الذي انفرد بهذه الطريقة البديعة.

وباجتماع هذه الخصائص، فإننا نخلص إلى تعريف قدّمه لنا الدكتور محمد الحسنوي، حيث يقول: «الفاصلة كلمة آخر الآية كفاية الشّعرو سجعه النثر والتفصيل توافق فواصل آية في حروف الروي، أو في الوزن، بما يقتضيه المعنى، وتستريح إليه النفوس».²³

هذا فيما يخص تعريف الفاصلة، أما تحديدها فقد اختلف فيه علماء كثيرون لأنّ الفاصلة في حدّ ذاتها تأخذ أشكالاً متعدّدة، فقد تكون كلمة وقد تكون مقطعاً من كلمة، وقد تكون جملة²⁴، ولذلك عدّها سيّد قطب إيقاعاً متشابهاً تنسجم به الآيات دونما تحديد لها فيما إذا كانت حروفاً أو مقطعاً صوتياً أو جملة²⁵.

1-2 وظيفة الفاصلة دلاليا:

وقد كثرت فواصل القرآن الكريم بوصفها وسيلة تعبيرية بالغة التأثير فعليها يتوقّف اكتمال المعنى، وفيها ذروة النغم. وكثيراً ما تنزاح لفظة لتحلّ محلّها أخرى ممّا يحقّق التلاؤم في إيقاع الفاصلة، نحو قوله تعالى: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ {9} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ {10}»⁶²، فتقدّم المفعول به «اليتيم» على الفعل «لا تقهر» حتّى يتحقّق الانسجام في إيقاع فاصلتي الآيتين معاً (تنهر، تقهر) فأدّى ذلك إلى توازن إيقاع القرائن لتساوي الوحدات الصوتية بينهما، وانتهى الإيقاع بنغم متشابه يطيّب سماعه.

ويقول الله تعالى: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ {6} حُسْبَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ {7} مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ... {8}»⁷² القياس في الآية أن نقول الداعي بإرجاع ياء المنقوص، وإذا نحن لم نخطف هذه الياء أو نحذفها في أثناء التلاوة لوجدنا ما يشبه الكسر في إيقاع العبارة، ولما توازنت لفظة الداع مع كلمة (عسر) في رأس الآية²⁸. وقد لا يكون هناك حذف ولا تقديم... ومع ذلك نلاحظ في الآية الموسيقى الكامنة في التركيب والتي تختلّ لوغيّرنا نظامه، ولنقرأ قوله تعالى: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ... {127}»²⁹.

إنّ التوازن أو التقابل بين المدّ في إبراهيم، والمدّ في إسماعيل واضح ومتناسق، فلو جعلنا إسماعيل يأتي مباشرة بعد إبراهيم وقرأنا لتوالي مدّان وأحسنا بالتالي أنّ الوزن سيختل لا محالة³⁰.

يعتمد الإيقاع القرآني في مستواه الخارجي على الجانب الصوتي الناتج عن تناسق الحروف، من حيث مخارجها، وصفاتها وحركاتها، ومن أوزان الكلمات والفواصل القرآنية، وضروب البديع والتوازن بين الجمل والعبارات.

أمّا الإيقاع الداخلي فهو حركة منتظمة في بناء السورة كلّها تميّزها عن بقية السور الأخرى، وهذه الحركة الداخلية لا يتم إدراكها من خلال حاسة السمع فقط؛ لأنّها حركة صوتية دلالية، فهي تدرك من خلال فهم متكامل لنمو الحركة الإيقاعية¹³، وفعاليتها في إنتاج معناها داخل البناء الكلّي للسورة الواحدة.

إنّ الفاصلة في القرآن الكريم ركن أساس في تكوين بنيته الإيقاعية، ولكّنها ليست مجرد توافق ألفاظ أو أوزان، بل لها علاقة وثيقة بما قبلها، أي وظيفتها ليست لفظية فحسب، بل لها دور كبير في إبراز المعنى، لذلك جاءت مستقرّة في مواضعها، غير قلقة ولا نافرة، فهي ألفاظ ذات أجراس موسيقية مؤثّرة في النفس البشرية، عمد إليها القرآن الكريم لتحقيق أغراضه ومقاصده الدنيوية والدنيوية.

1-3 الطرق السياقية التداولية لمعرفة الفاصلة:

لمعرفة الفاصلة في القرآن الكريم ورد في كتب علوم القرآن طريقان، توقيفي وقياسي:

التوقيفي: مسلكه السياق الخارجي والمنهج التاريخي الاستقرائي، والأخذ بالروايات النقلية الموثوقة هو المسيطر على هذه الطريقة، بذكر ما ثبت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من تحديد لرؤوس الآي في السور ومما يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن أم سلمة (رضي الله عنها): لما سئلت عن قراءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قالت: «كان يقطع قراءته آية آية»، وقرأت: «بسم الله الرحمن الرحيم» إلى «الدين» تقف على كل آية. فمعنى: «يقطع قراءته آية آية»: أي: يقف على كل آية وليعلم رؤوس الآي.

ومما يدل أيضاً ما رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: أقراني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سورة من الثلاثين من ال «حم» يعني الأحقاف، قال وكانت السورة إذا كانت من ثلاثين آية سُميت الثلاثين». وهذا يدل على أن إحصاء الآيات كان معهوداً زمن النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما جاء في الفاتحة أنها سبع آيات، والمثلث ثلاثين آية، وعليه، فما ثبت أنه (صلى الله عليه وسلم) وقف عليه دائماً تحقّقنا أنه فاصلة، وما وصله دائماً تحقّقنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرّة ووصله مرّة أخرى احتمل الوقف عليه أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة، والوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدّم تعريفها.³²

■ القياسي: ومسلكه تداولياً الاستدلال البلاغي الذي يقوم على القياس البرهاني ومعرفة العلماء بالملكات المنطقية الرياضية ومبادئها كالمساواة والقلب والعكس وعلاقة الجزء بالكل يقول السيوطي: «وهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص عليه لمناسب ولا محذور في ذلك لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان، وإنّما غايته أنه محلّ فصل أو وصل، والوقف على كلّ كلمة جائز، ووصل القرآن كلّ جائر، فاحتاج القياسي إلى طريق تعرفه».³³

وقد ذكر العلماء بعض الطرق والمسالك العقلية لمعرفة الفواصل منها:

أ. مساواة الآية لما قبلها وما بعدها طولاً وقصراً: وذلك مثل إجماع العلماء أن «لحي القيوم» في قوله تعالى: «وَعَنَتِ الْجُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ {111}»³⁴ ليست فاصلة، مع أنهم عدّوها فاصلة في أول سورة آل عمران، والسبب عدم مساواتها لما قبلها «ولا يحيطون به علماً» ولا لما بعدها «وقد خاب من حمل ظلماً».

ب. مشكلة الفاصلة لآيات السورة في الحرف الأخير أو ما قبله: مثاله قوله تعالى: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَهْلَ النَّاسِ وَيَأْتِ بِآخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا {133}»³⁵، فالعلماء لم يعدّوها «ويأت بآخرين» فاصلة لعدم تشاكل طرفها مع طرف الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا {132}»³⁶، وإنّما عدّوها قوله تعالى: «وكان الله على ذلك قديرًا» فاصلة لتشاكل الطرفين.

ج. انقطاع الكلام: وهو أن كلّ كلمة مشتملة على حرف المد وقعت بعد كلمة أخرى مشتملة على حرف مدّ وصلح كلّ منهما لأن يكون فاصلة، فالفاصلة هي الكلمة الثانية كما في «عليم حكيم»، «عليم، حليم» وهكذا.

وتبقى الضوابط قضية اجتهادية عند العلماء، فالتوقيفي مثلاً تتباين أوجه النظر لدى العلماء في فهمه، والقياسي مسألة

نسبية يتم الاختلاف في وجهات النظر فيها كذلك.

1-4 أنواع الفواصل إيقاعيا في القرآن الكريم:

الفواصل في القرآن الكريم متعددة وقام العلماء بالتفريق بينها وفق مبادئ إيقاعية بحثة، من أهمها:

■ الفواصل المتماثلة (المتجانسة): وهي التي تماثلت في حروف رويها مثل قوله تعالى: «وَالطُّورِ {1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ {2} فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ {3}».³⁷

فكلمات: «الطور، مسطور، منشور» تنتهي بفاصلة واحدة تتمثل في حرف الزاء، وفي قوله تعالى: «وَالْفَجْرِ {1} وَلَيَالٍ عَشْرٍ {2} وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ {3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ {4}»³⁸

لقد استقلت الفواصل المتماثلة بإحدى عشرة سورة من السور القصاري في القرآن وهي: (القمر، والقدر، والعصر، والكوثر، والأعلى والليل، والشمس، والإخلاص، والمنافقون، والناس، والفيل).³⁹

د. الفواصل المتقاربة: وهي التي تقاربت حروف رويها كتقارب الميم والنون، في مثل قوله تعالى: «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {3} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ {4}».⁴⁰

■ المتوازي: هو توافق الكلمتان في الوزن والروي، كقوله تعالى: «فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ {13} وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ {14}»⁴¹، فقد اتفقت الفاصلتان (مرفوعة، موضوعة) في الوزن والحرف.

هـ. المطرف: وهو أن تختلف الفاصلتان في الوزن وتتفقان في حرف الروي، كقوله تعالى: «مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا {13} وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا {14}»⁴²، وقد اختلفت الفاصلتان (وقاراً، أطواراً) في الوزن، بينما اتفقتا في حرف الروي.

■ المتوازن: وهو أن تتفق الفاصلتان في الوزن فقط، كقوله تعالى: «وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ {15} وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ {16}»⁴³، حيث اتفقت الفاصلتان في الوزن (مصفوفة مبثوثة) واختلفتا في حرف الروي.

■ المرصع: أن تتفق الفاصلتان في الوزن والتقفية، وتكون الفاصلة المتقدمة مقابلة للفاصلة المتأخرة، كقوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ {14}»⁴⁴.

و. المتماثل: وهو أن تتساوى الفقرتان في الوزن دون التقفية، ويكون ما في الأولى مقابل لما في الثانية، كقوله تعالى: «وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ {117} وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {118}»⁴⁵، (فالكتاب، والصراط) يتوازنان وكذلك (المستبين، المستقيم) واختلفتا في الحرف الأخير.

ثانيا: أهمية الفاصلة (إيقاعياً صوتياً ودلالياً):

يتضح بجلاء دور الفاصلة في الإعجاز القرآني وفعاليتها دلاليا في إنتاج المعاني، وذلك بتنوع استعمالها إذ لو حذفت لاختل المعنى في الآية، كما أنها تميز نظم القرآن عما سواه فهي تؤثر على المضمون بدلالاتها وعلى الإيقاع بمقاطعها، فيتم بها المعنى و تستريح لها النفس، يقول الزركشي: «وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام»⁴⁶ فتبرز أهمية الفاصلة من خلال هذا القول بأن لها دور في تحسين الكلام، وإيصال الخطاب لذهن السامع دون كلفة وعناء، وهذا ما يميز القرآن الكريم عن غيره من كلام البشر.

ويمكن إجمال أهميّة الفاصلة فيما يلي:

- دورها في كشف جماليات الأداء الصوّتي الذي تميّزه تلاوة القرآن الكريم.
- الفاصلة بقيمتها الإيقاعيّة والموسيقىّة تلعب دور المفتاح في اللّحن الموسيقي.
- تتضمّن إشارات من حكم الله البالغة، وكثيراً ما تربط العبد بأسماء ربّه تبارك وتعالى وصفاته (حكيم، عليم، سميع، بصير)، (على كلّ شيء قدير) وهكذا.
- دلالتها على الإعجاز، وذلك لاحتفاظها بكنوز المعاني مع موسيقى الألفاظ فعند سماع الفاصلة تتولّد أريحية في النّفس واطمئنان في القلب، وبالتالي مجاذبة الأذن للإنصات والخشوع، فلا يصحّ النّظر إلى الجانب الإيقاعي الموسيقي للفاصلة القرآنيّة في حال كوننا غافلين عن البعد المعنوي السّيّاق الذي يحتمه النّص المعجز، وبالتالي لا انفكاك بين المعنى المراد، وبين إيقاع الفاصلة فكلاهما مراد في تحقيق الإعجاز القرآني⁴⁷، أي أنّ الفاصلة يقع بها إحكام بناء الآية شكلاً ومضموناً، فأما شكلاً (مبنى) فذلك واضح في جودة القرآن وسبكه وحسن نظمته، فقد أخذ بمجامع قلوب أعدائه قبل أوليائه، حتّى قال قائلهم: «إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو وما يُعلى عليه»⁴⁸ وأما معنّى (مضموناً) فلا ارتباط الفواصل بالمعاني واقتنائها، ومن أمثلة ذلك:

أ. سماع الأعرابي لقارئ يقرأ قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»{38}«94، وقد ختمها القارئ بـ «غفور رحيم»، فقال الأعرابي: مع أنّه لم يسمع الآية من قبل: ليست التلاوة كذلك، فتنّبّه القارئ وقال: «والله عزيز حكيم»، فقال الأعرابي: بخ بخ عزّ فحكم فقطع.

ب. قال تعالى: «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»{118}«50، فإنّ قوله –وإن تغفر لهم– يقتضي أن تكون الفاصلة الغفور الرحيم، لأنّ العزيز هو الغالب، والحكيم هو الذي يضع الشيء في محله. لكن قد يخفى وجه الحكمة عن بعض الضّعفاء في بعض الأفعال فيتوهّم أنّه خارج عنها وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراص حسن: أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته.⁵¹

ج. قال تعالى: «مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصِداً»{51}«52، جاءت فاصلة الآية مفردة (عضداً) مع أنّ سياق الآية يتحدّث عن الجمع، وذلك لتناسب فواصل الآيات التي قبلها وهي (موعداً، أحداً، بدلاً) فهي الأليق من حيث الالتحام مع سائر الفواصل، وكذلك من حيث المعنى لأنّ المضلّين جميعاً هم من الهوان والدّل بموضعٍ يستغني الله عن معونتهم فواحدهم فيه كجميعهم.⁵³

د. قال تعالى: «أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ»{26} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ»{27}«54. فقد تحدّثت الآية عن القرون المهلكة، فهو حديث عن التّاريخ، وتحدّثت الآية الثّانية عمّا يشاهدونه على الأرض، كيف يُنزل عليها الماء فتنبّت الزّرع، فأمر التّاريخ يُسمع سمعاً، فناسب أن تختتم الآية بقوله تعالى: «أفلا يسمعون»، وأمر إنزال المطر من السّماء يُشاهد مُشاهدة، فناسب أن تختتم الآية بقوله تعالى: «أفلا يبصرون».⁵⁵

ومن خلال هذه الأمثلة يتبين كيف جمع القرآن العظيم في فواصله بين الوفاء بحق المعنى وبين محاسن الصياغة لفظاً وصوتاً بطريقة محكمة.

1 الفارق بين الفاصلة والقافية والسجع:

إنَّ الفاصلة في القرآن الكريم لا تخرج عن كونها كلمات أو آخر الآيات ينفصل عندها الكلام بعضه عن بعض لتحسينه. والفواصل -كما أجمع العلماء- لا تُسَمَّى قوافي، لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- لما سلب اسم الشَّعر عن القرآن بقوله: « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ {41} »⁵⁶، أوجب سلب القافية عنه أيضاً، لأنَّها منه، وكما يمتنع استعمال القافية فيه، يمتنع استعمال الفاصلة في الشَّعر، فالفاصلة صفة لكاتب الله -عزَّ وجلَّ- لا تتعداه⁵⁷، كما أنَّ القوافي لا ترتقي إلى طبقة الفواصل، لأنَّ الفواصل في الطبقة العليا في البلاغة.⁵⁸

وحُصِّتْ فواصل الشَّعر باسم القوافي، لأنَّ الشَّاعريقفوها أي يتبعها في شعره فلا يتركها ولا يخرج عنها، وهي في الأصل فاصلة، لأنَّها تفصل آخر الكلام، فالقافية أخصَّ في الاصطلاح، فكلَّ قافية فاصلة، وليس كل فاصلة قافية⁵⁹ كما أنَّه كلَّ ما يذكر من عيوب القافية كاختلاف الحركة والإشباع والتوجيه ليست بعيبٍ في الفاصلة، كما أنَّ الفواصل تتقارب ولا تتماثل، «ولا يشترط في واحدةٍ منها الموافقة في الإعراب لما قبلها بشرط الوقف»⁶⁰

الفارق بين الفاصلة والسجع بين: إذ الفاصلة تكون مقاطع الكلام فيها متقاربة في الحروف كالنَّون والميم، أو الدَّال والباء في قوله تعالى: « ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ {1} بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ {2} »⁶¹، أمَّا السَّجع فهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير⁶²، وعلى هذا فالفواصل أعمَّ من السَّجع، فالسَّجع تتحد فيه حروف المقاطع، أمَّا الفواصل فتتقارب فيها حروف المقاطع.

وقد اختلفت آراء العلماء بين معارضين لوجود السَّجع في القرآن ومؤيدين له، فالطَّائفة الأولى تنفي وبشدة أن يكون ما في كلام الله -سبحانه وتعالى- سجعاً، إنَّما هو فواصل خاصة بكتاب الله تعالى، وحجَّتْهم في ذلك أنَّ أصل السَّجع من سجع الطَّير (الحمام)، فلا يقال في القرآن الكريم أسجاع رعايةً للأدب وتعظيماً وتنزهاً له عن التَّصريح بما أصله في الحمام التي هي من الدَّواب العجم⁶³، فالقرآن الكريم هو كلام الله الذي لا يشبه كلام البشر، فأراد هؤلاء العلماء أن يحفظوا للقرآن الكريم قدسيته، فرفضوا السَّجع فيه، ومن أبرزهم الرَّماني الذي يقول عن الفواصل: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب، وذلك أنَّ الفواصل تابعة للمعاني، وأمَّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها»⁴⁶، ووافقه «الباقلائي» الذي وصف القول بوجود السَّجع في القرآن بأنَّه وهم، لأنَّ السَّجع يتبع المعنى فيه اللَّفظ الذي يُؤدِّي السَّجع، أمَّا في القرآن فلا يقع ذلك، لأنَّ اللَّفظ يرد تابعاً للمعاني، وليس المعنى تابعاً له، ثُمَّ إنَّ القرآن لو كان سجعاً لما تحيَّروا فيه ذلك التحير، «لأنَّ السَّجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة، وهو غير خارج عنها ولا مميَّز منهم»⁶⁵.

أمَّا الطَّائفة الثانية فتقول: بوجود السَّجع في القرآن الكريم، إلَّا أنَّه من النَّوع الذي تكون ألفاظه تبعاً لمعانيه، ومن أبرز القائلين بهذا الرأى ابن سنان الخفاجي الذي يرد على الرَّماني بقوله: «وأظنَّ الذي دعاهم إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل، ولم يسمِّوا ما تماثلت حروفه سجعاً، رغبتهم في تنزيه القرآن الكريم عن الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم»⁶⁶، ومن الذين أجازوا السَّجع

كذلك ابن الأثير حيث قال: «وقد ذمّه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصنّاعة ولا أرى لذلك سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا لو كان مذموماً لما ورد في القرآن، فقد جاء منه الكثير، حتّى أنّه ليؤتى بسورة جميعها مسجوعة، كسورة الرّحمان وسورة القمر».⁶⁷ وفي الختام نخلص إلى أنّ القوافي مختصّة بالشّعر، والأسجاع بالنثر، والفواصل مختصّة بكلام الله - عزّ وجل - فليس هناك ما هو أنسب ولا أدق من هذا المصطلح، كما أنّ الفاصلة في القرآن الكريم لم يقصد في جلبها مجرد التّحسين والتّنسيق الموسيقي فيما بينهما فقط، بل ترد في الغالب تكميلاً للمعنى وتقويةً له، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز الصّوتي في القرآن الكريم، والذي سنتناوله بشيء من التّفصيل في مبحثنا التّالي.

ومن أنواع إيقاع الفاصلة ما يأتي:

(1) إيقاع قرار الفاصلة (حرفها الأخير): ونسبة حروف العلل في فواصل السّور المكيّة أكثر من بقيّة الحروف، فالقرآن الكريم يكثر في فواصله المكيّة من استعمال حرف الألف من بين حروف اللّين الثلاثة، كما يكثر من استعمال حركة الفتحة، وهذه الألف تملك قيمة تنغيميّة وتطريبيّة أكثر من الواو أو الياء دعك من بقيّة الحروف، فهي ممدودة ومخرجها من أقصى الحلق⁸⁶. ومثال ذلك قوله تعالى: «وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها{2} وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا{3}»⁶⁹، فيها إيقاع ندي ترسمه الألفات المتتابعة في نهاية الآيات، مع تناظر المديّن المتتابعين في نهاية كلّ فاصلة.

وفي سورة «عبس» تبدأ السّورة فاصلتها بالألف اللّينة «عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى{2}»⁷⁰، بعدها تصبح تاءً ساكنة: «كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ{12}»⁷¹، ثم تضحي هاء «فَتِلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ{17}»⁷²، ثُمَّ بَاءً مفتوحة «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا{25}»⁷³ هنا تبلغ النّفس غاية شوقها إلى عودة المفتاح، وبما أنّ السّورة بُنيت على مفتاحين فقد عاد الثّاني ولم يعد الأوّل «وَجُودُهُ يُؤْمِنُ مُسْفِرَةٌ{38} ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ{39}»⁷⁴، وإليه ينتهي اللّحن، وتجد النّفس راحتها واطمئنّانها بعد ترقّب وتوقّع وجذب وحنين.⁷⁵

(2) إيقاع مقطعها الصّوتي الأخير: فقد يسود مقطع في نهايات الفواصل، مثل المقطع الطّويل، نحو قوله تعالى: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{40} أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ{41} فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ{42} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{43}»⁷⁶.

(3) إيقاع الفاصلة نفسها: بتكرار الكلمة نفسها نحو قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ{1} وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ{2}»⁷⁷. وقوله تعالى: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20}»⁸⁷. أو بتكرار وزنها، كقوله تعالى: «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ{28} وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ{29} وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ{30} وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ{31}»⁹⁷، وقوله تعالى: «وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ{7} لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْفَذُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ{8} دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ{9}»⁸⁰.

والفاصلة بقيمتها الإيقاعيّة والموسيقىّة تلعب في السّور دور المفتاح في اللّحن الموسيقي، ويمتاز القرآن من الموسيقى وفن القول عموماً بتنوع هذه المفاتيح والانتقال فيما بينها في السّورة الواحدة بيسر وسهولة.⁸¹

أ. دلالة الجهر والهمس :

إنّ ما تملّيه علينا الفطرة اللّغويّة بخبرتها، أنّ الجهر أقوى من الهمس نطقاً وسماعاً.

وقد وردت كلمة (الجهر) في القرآن الكريم بمعنى الصّوت الواضح والظاهر من ذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا

أَصْوَاتُكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ... {2}» 28، وقوله: «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ» {110}» 38.

أما كلمة (الهمس) فقد وردت في قوله: «... وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا» {108}» 48، مقترنة بـ «خشعت الأصوات»، ولا يمكن لصوت خاشع أن يكون أقوى من الجهر، لتدل بذلك على خفوت الصوت وضعفه 58. ويتضح مما سبق أن الجهر ملمح يكسب الصوت ظهوراً في النطق ووضوحاً في السّوغ بخلاف الهمس، فهو ملمح يكسب الصوت خفاءً في النطق وخمولاً في السّمع، فيكون بذلك الجهر أقوى من الهمس.

أما من ناحية الجانب النطقي، فعادةً يستأثر الصوت الأقلّ جهداً بالأفضلية، وذلك أن نطق الصّوامت المهموسة يحتاج عادةً إلى جهد عضوي أقوى من الذي يستدعيه نطق الصّوامت المجهورة، وعلى ذلك ينصّ إبراهيم أنيس بقوله: «إنّ الأحرف المهموسة تحتاج للنطق بها إلى قدر أكبر من هواء الرّتين، ممّا تتطلبه نظائرها المجهورة، فالأحرف المهموسة مجهدة للتنفّس. ولحسن الحظ، نراها قليلة الشّيع في الكلام، لأنّ خمس الكلام يتكوّن عادة من أحرف مهموسة، وباقي الكلام أحرف مجهورة» 68.

وقد وظّف التعبير القرآني صفتي الجهر والهمس، وأفاد منهما في الدلالة على المعاني، إذ يستعمل الأصوات المجهورة أكثر من الأصوات المهموسة في سياق الآيات التي تعبّر عن معاني القوة والعنف والشدة، لأنّ الجهر في الصوت يمنحه القوة الملائمة لتلك المعاني، كما في قوله تعالى: «... حَتَّى إِذَا اذْكُرُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَآئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَنبِئْهُمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِمَّنَّ النَّارِ...» 78، وقوله تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً...» {103}» 88، فالأصوات المجهورة في كلمتي (اذكروا) و (اعتصموا) عبّرت عن معنى الجمع والقوة. كما أنّ الصوت المهموس له إحياء صوتي بين بالمعنى، إذ يكوّن بؤرة دلالية تجسّد المعنى بوضوح، نحو قوله تعالى: «... قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا...» {63}» 98 فكلمة "يتسلّلون" احتوت الياء واللام والواو والنون جميعها مجهورة، والتاء والسّين مهموسان، وقد صوّر السّين بصفيّره وهمسه الدال على الانزلاق والمسير⁹⁰ عمليّة التسلّل التي تكون في همس وخفاءٍ وروية.

وكذلك قوله تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا» {45}»⁹¹، فكلمة «هشيم» بهائها المهموسة ضعف النّبات اليابس، أو المحروق وهشاشة عوده. لأنّها أضعف الأصوات، كما تحاكي الشّين وهو صوت لثوي حنكي رخو مهموس، وهو للتفشّي، لأنّ الهواء يتفشّي عند ارتفاع طرف اللسان إلى مؤخّر اللّثة ومقدّم الحنك الأعلى عند نطقه فهو يَصوّر تفشّي الحدث⁹²، وبالتالي يشيع الضّعف في أجزاء هذا النّبات، فصوّرت هذه الآية للنّاس قصر هذه الحياة الدّنيا التي تلهيهم عن الآخرة.⁹³

ثالثاً: دور الفاصلة في انسجام الخطاب القرآني

3-1 علم مناسبة السور واتّساق السورة:

يعتبر علم المناسبات فرعاً من علوم القرآن، وهو وثيق الصلة بالتفسير الموضوعي - وخاصة التفسير الموضوعي للسورة - وذلك لأننا نلاحظ أن الآية أو مجموع الآيات تنزل في أسباب مختلفة وحوادث متفرقة ثم توضع في سورة واحدة وقد تكون بين

الآيات التي وضعت في موضع ما من السورة والآيات التي وضعت عقبها فترة زمنية قصيرة لا تتعدى الأيام وقد تكون فترة طويلة تتجاوز عدة سنوات.⁹⁴

ولقد عني العلماء القدماء بهذا الترابط والتناسق بين الآيات والسور منهم :

القاضي أبو بكر العربي (ت 543 هـ) : « ارتباط آي القرآن بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني منتظمة المباني . »⁹⁵ أما الإمام بدر الدين البقاعي (809 / 885 هـ) فقد عرفها على أنها : « علم تعرف منه علل الترتيب ، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبتة من حيث الترتيب ، وثمرته الإطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له ، بما وراءه و أمامه من الارتباط و التعلق الذي هو كلحمة النسب . فعلم المناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني ، لما اقتضاه من الحال ، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها . »⁹⁶ وعرفه جلال الدين السيوطي (849 / 911 هـ) : « مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، منتظمة المباني . »⁹⁷ وأداة الربط بين آيات السورة هي الفاصلة بثقلها وركوزها الإيقاعي فـ «..تأتي مستقرّة في قرارها يتعلّق معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقاً تاماً، بحيث تقوم بدورها في إحكام الآية بطرق التقديم والتأخير أو الحذف والزيادة أو الالتفات أو الفصل والوصل »⁹⁸.

وقد ذكر الزركشي أنّ خروج الكلام عن نظمه مراعاة للفاصلة هو أداة لآساق الكلام، حيث يكون لها تأثير على المتلقي عجيب، وقد أصل لهذا الخروج اثني عشر موضعاً مستفيداً من شواهد استقاهها من كلام الفراء وابن قتيبة، وابن سيده والزمخشري والعكبري معتبراً إيقاع المناسبة في الفواصل يكون بتأخير ما أصله التقديم أو إفراد ما أصله الجمع أو جمع ما أصله الإفراد⁹⁹، فيكون بذلك إيقاع الفاصلة أداة آساق يشدّ بها الخطاب القرآني بعضه بعضاً مما يحدث انسجاماً في السورة، وتساهم الفاصلة في «اعتدال نسق الكلام، وحسن موقعه في النفس تأثيراً عظيماً»¹⁰⁰.

« إنّ لتناسب الفواصل أثراً جلياً في بناء الخطاب، لما يتداخل اللفظ والمعنى والإيقاع في خدمة الدلالة المقصودة من الخطاب، بيد أنّ تغيير نسق الخطاب لا يكون لمراعاة الصوت «101 وإنّما لما يصاحبها من إنتاجٍ للمعنى المراد، يقول الزمخشري: « لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها، إلّا مع بقاء المعاني على سدادها على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتناغم كما لا يحسن تخيّر الألفاظ المونقة في السّمع، السّلسة على اللّسان، إلّا مع مجيئها منتقاة للمعاني الصحيحة المنتظمة، فأما أن تهمل المعاني ومهمّ بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه على بالٍ، فليس من قبيل البلاغة في فتيل أو نقير »¹⁰².

ومنه يمكننا أن نقول أنّ ائتلاف الفواصل لا بدّ أن يكون ما يدلّ عليه الكلام، فيرتدّ إلى محور المعنى ومدى تعلّقه بالغرض ومقتضى الحال¹⁰³. كما يمكننا اعتبارها أداة من أدوات الاتساق والانسجام ويتمثل دورها فيما يلي¹⁰⁴:

- تضيفي على النص قيمة صوتية منتظمة ، ينقسم سياق النص بها إلى وحدات أدائية تعد معالم للوقوف والابتداء وتتضافر مع الإيقاع فينشأ من تضافرها أثر جمالي .
- قد تكون الفاصلة جزءاً من تركيب الآية وما يساهم في معناها ومكماً لبنيتها فلا يتصور تمام معنى الآية إلا بها .
- وقد تأتي بعد تمام المعنى فتكون تذييلاً للآية كالتعليق والتعقيب على محتواها ، حيث يكون هناك انسجام وتآلف بين

مضمون الآية ومضمون التذييل ، فليس هناك آية تتضمن رضواناً من الله وينتهي تذييلها بالوعيد وشدة العقاب .

- تجري الفاصلة في عدد من آيات السورة على نمط ولكنها سرعان ما تتحول إلى نمط آخر فتنوع الفواصل وعدم الالتزام بضرورة الحرف هذا التوازي غير التام ساهم في نمو النص وتوليد معانيه ودلالاته .
 - الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعي في كثير من الآيات القرآن ، وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصراً وتأخير من عناصر الجملة ، لقد تكلم البلاغيون في أغراض التقديم والتأخير فيوردون من أسباب ذلك رعاية الفاصلة :
رتبة أصلية رتبة مشوشة من أجل الفاصلة
وينفقون مما رزقناهم ومما رزقناهم ينفقون
 - وليس التقديم والتأخير فقط لرعاية الفاصلة بل لأنها تزيد المعنى بهذا الترتيب فتفيد التخصيص.
 - يتحقق الاتساق النصي عن طريق تكرار البنية التركيبية لمجموعة من الكلمات (التشاكل التركيبي) على اختلافهما طبعاً في المحتوى الدلالي، حيث يحدث تزاوج بين الإيقاع واللفظ فيما يعرف بالتوازي الإسنادي.
 - يتحقق الانسجام عن طريق تقارب دلالات بعض الفواصل وقد تؤدي في بعض الأحيان إلى نفس الغرض .
 - للفاصلة غرض نحوي ودلالي كما لها غرض جمالي من خلال التوافق النغمي بين الحروف نظراً لما تحدثه من تناغم وتآلف بين الألفاظ يؤثر في المتلقي.
 - إن الصياغة اللفظية المحكمة والأصوات المنسجمة تعمل على إضفاء نغمة موسيقية تساعد على تحقيق الاتساق بين الألفاظ والعبارات ، من شأنه أن يربط أجزاء الكلام ببعضه ببعض .
- إذا كان دارسوا الإعجاز قد درسوا الفاصلة كأداة للإعجاز الصوتي وكأهم عنصري الموازنات الأسلوبية، وإذا كان المفسرون قد اعتبروها أداة لاتساق النصوص ومساهم قوي في انسجام الخطاب القرآني، فإننا نجد علماء القراءات قد اهتموا ببناء حروفها وتجويد نطق مدودها وأماكن وقفها بين الوجوب والاستحسان والكراهة والنهي، مراعين ما تحدثه من توقيعات مؤثرة وإنتاج للدلالات وهذا ما سنسلط عليه الضوء في هذا العنصر.
- 4-2 الترتيل القرآني: الفاصلة بين الوقف وتحسين الصوت:
- يعتبر الترتيل البعد الإيقاعي في قراءة القرآن، وصف ابن الجزري (ت833هـ) التجويد بأنه « حلية التلاوة وزينة القراءة »¹⁰⁵ ، وقد اعتنت كتب التجويد والقراءات سمات الأداء الشفهي الصوتي التطريزي الإيقاعي بدراستها لمخارج الحروف وصفاتها، ووضعت قواعد للوقف، وأهم قواعدها في القراءة¹⁰⁶:
- * الاسترسال وهو تمديد الصوت دون انخفاضه.
 - * الترخيم وهو لدة الصوت دون الذهاب بالتنعيم.
 - * التفخيم وهو تسمين الصوت.
 - * تقدير الأنفاس وهو مراقبة التنفس أثناء المدود.
 - * التجريد وهو الانتقال من الصوت القوي إلى الصوت الضعيف والعكس.

إنّ الذي يهّمنا هنا ليست دراستهم لمخارج الحروف وصفاتها لأنّها لم تخرج كليّة عن الجهود الصوتيّة لعلماء اللّغة، ولكنّنا سنركّز على لإيقاع الفواصل أثناء الأداء الشفهي ومناسبتها للمعاني من خلال أماكن الوقف؛ حيث أنّ السّكت أو «انقطاع النفس» يكون اضطراراً أو اختياراً للاستراحة التنفسيّة أو لمراعاة حال المعنى، يقول ابويحي الأنصاري: «والناس مختلفون في الوقف: فمنهم من جعله على مقاطع الأنفاس، ومنهم من جعله على رؤوس الآي، والأعدل أنّه قد يكون في اوساط الآي، وإن كان الأغلب في أواخرها، وليس آخر كلّ آية وقفاً، بل المعاني معتبرة والأنفاس تابعة لها»¹⁰⁷.

يمكننا أن نستخلص من القول السابق أنّ للوقف عند الفواصل علاقة بالتركيب وإنتاج الدلالة، «إذ هو يقطع سلسلة الكلام ويفرق بين المعاني لأمن اللبس، ومن ثمة تكون وظيفته موجّهة للتأثير «إفهام المتلقي، ووظيفة المقرئ: «أن يتفهّم ما يقرأه، ويشغل قلبه به، ويتفكّد القطع والالتفاف، ويحرص على أن يفهم المستمعين في الصلاة وغيرها، وأن يكون وقفه عند كلام مستغنٍ أو شبيهه، وأن يكون ابتداءه حسناً»¹⁰⁸.

إذن للوقف وظيفة تنظيميّة تساهم في إنتاج دلالات الخطاب وتراعي في تقطيعها لأجزاء سلسلة الخطاب حال المعنى أو مقتضى الخطاب؛ ففي سورة الماعون مثلاً لا يمكننا التوقّف عند ﴿قَوْلٍ لِلْمُصَلِّينَ﴾ رغم أنّها فاصلة تتساق صوتياً مع ما قبلها من فواصل، لكنّه لا يتمّ المعنى إلّا بذكرنا لـ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾¹⁰⁹.

هناك نوع من الوقف يسمّى «الوقف الترنّمي» له علاقة بظاهرة التنغيم، يستعمل لتحسين الصوت والتمكّن من التطريب أثناء ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون¹¹⁰.

ولهذا الوقف وظيفتان: المساعدة على حفظ القرآن والتأثير النفسي في المتلقي ذو توجه ديني إذ يساهم في الخشوع وتدبر القرآن أثناء سماعه؛ لأنّ «الألفاظ إذا أجليت على الأسماع في أحسن معارضها، وأحلى جهات النطق بها، حسبما حتّ رسول الله ص بقوله: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» كان تلقي القلوب، وإقبال النفوس عليها بمقتضى زيادتها في الحلاوة والحسن»¹¹¹، ولأنّ «النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم، لأنّ للتطريب تأثيراً في رقة القلب، وإجراء الدموع لأنّ ذلك سبب الرقة، إثارة الخشية، وإقبال النفوس على استماعه».

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- نعيم اليافي، ثلاث قضايا حول الموسيقى في القرآن، مجلّة التراث العربي، مجلّة فصليّة، العدد 17، اتحاد الكتاب العرب، محرّم 1405هـ- أكتوبر 1984م، ص 100.
- 2- رواه الشيخان بخاري ومسلم
- 3- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دارالمعرفة، لبنان، ص 394
- 4- عبد اللطيف الوراري، نقد الإيقاع (في مفهوم الإيقاع وتعبيراته الجماليّة وآليات تلقيه عند العرب)، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط (المغرب)، ط 1، 1432هـ/2011م، ص 186.
- 5- عبد اللطيف الوراري، المرحع نفسه، الصفحة نفسها.
- 6- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، ط 1، مصر، 1995م

ص16 وما بعدها

7 - الجرجاني، المرجع نفسه، ص24.

8 - الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ص8.

9- ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج2، ط4، 1398هـ/1978م، ج2، ص125.

10- ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، مادة (فصل)، دارالمشرق، ط30، بيروت، 1988م، ص585.

11- ابن منظور، لسان العرب، مادة (فصل)، ج6، ص134.

12- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص53.

13- الرّماني، النّكت (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف،

مصر، القاهرة، ط3، 1976م، ص97.

14- الباقلائي، إعجاز القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1398هـ/1978م، ص208.

15 ابن منظور، لسان العرب، مادة (فصل)، ج5، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، ص135.

16 الزركشي، المرجع السابق، ج1، ص53، والسيوطي: ص124.

17 الزركشي، المرجع السابق، ج1، ص54.

18 الباقلائي، المرجع السابق، ص209.

19 السيوطي، المرجع السابق، ج2، ص124.

20 محمّد الصّغير ميسة، جماليات الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم، مذكرة ماجستير، جامعة محمّد خيضر،

بسكرة، 2011/2012م - 1432/1433هـ، ص31.

21 أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، ط3، 1370هـ/1950م، ص75.

22 عيد محمّد شبايك، الفاصلة القرآنيّة بين المبنى والمعنى، دار حراء، القاهرة، ط1، 1413هـ/1993م، ص29.

23 محمّد الحسنّاي، الفاصلة في القرآن، دارعمار، عمان، ط2، 2000م، ص29.

24 محمّد الصّغير ميسة، المرجع ال، ص32.

25 ينظر: سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق، ط15، 1408هـ/1988م، ج1، ص547.

26 الضّحى، الآية: 9-10.

27 القمر، الآية: 6-8.

28 نعيم اليافي، عودة إلى موسيقى القرآن، مجلّة التّراث العربي، مجلّة فصليّة، العددان : 25-26، اتّحاد كتّاب العرب،

1407هـ/1986م-1987م، ص61.

29 البقرة، الآية: 127.

30 نعيم اليافي، المرجع السابق، ص61.

- 31 محمّد الصّغير ميسة، مرجع سابق، ص28.
- 32 السيوطي، الإتقان، ج2، ص124.
- 33 المرجع نفسه، ص124.
- 34 طه ، الآية : 111.
- 35 النّساء، الآية: 133.
- 36 النّساء، الآية: 132.
- 37 الطّور، الآية: 3-1.
- 38 الفجر، الآية: 4-1.
- 39 محمّد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، دارعمار، عمان، ط2، 2000م، ص147.
- 40 الفاتحة، الآية: 4-3.
- 41 الغاشية، الآية: 14-13.
- 42 نوح، الآية: 14-13.
- 43 الغاشية، الآية: 16-15.
- 44 الانفطار: الآية. 14-13.
- 45 الصّافات، الآية 117-118.
- 46 الزركشي، مرجع سابق، ج1، ص53.
- 47 المنثى عبد الفتّاح محمود، الفاصلة القرآنية و السّجع، مجلّة دراسات علوم الشّريعة والقانون، المجلّد 37، العدد 1، الجامعة الأردنيّة، 2010م، ص140.
- 48 محمّد علي الصّابوني، التّبيان في علوم القرآن، دارالبعث، قسنطينة، الجزائر، ط3، 1407هـ/ 1896م، ص103-102.
- 49 المائدة، الآية: 38.
- 50 المائدة، الآية: 118.
- 51 السيوطي، الإتقان، ج2، ص131-132.
- 52 الكهف، الآية: 51.
- 53 محمّد العفّ، المناسبة بين الفاصلة القرآنيّة وآياتها، رسالة ماجستير بالجامعة الإسلاميّة، غزّة، قسم التّفسيروعلوم القرآن، 1430هـ/ 2009م، ص40-39.
- 54 السّجدة : الآية : 27-26.
- 55 محمّد الصّغير ميسة، المرجع السابق، ص38.
- 56 الحاقّة، الآية: 41.

- 57 ينظر : السيوطي، الإتقان، ج2، ص124.
- 58 ينظر : الباقلاني، مرجع سابق، ص209.
- 59 ينظر : المرجع نفسه، ص115.
- 60 - عبد اللطيف الوراري، نقد الإيقاع، ص205.
- 61 ق، الآية: 1-2.
- 62 علي الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، مصر، ط17، 1384هـ/1963م، ص273.
- 63 محمّد الحسنّاي، المرجع السابق، ص111.
- 64 الرّماني، النّكت، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص98.
- 65 الباقلاني، مرجع سابق، ص113.
- 66 الخفاجي، مرجع سابق، ص171.
- 67 ضياء الدّين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، ج1، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، ط1، القاهرة، د ت، ص210.
- 68 نعيم اليافي، قواعد تشكّل النّغم في موسيقى القرآن، ص150.
- 69 الشّمس، الآية: 1-3.
- 70 عبس، الآية: 1-2.
- 71 عبس، الآية: 11-12.
- 72 عبس، الآية: 17.
- 73 عبس، الآية: 25.
- 74 عبس، الآية: 38-39.
- 75 نعيم اليافي، المرجع السّابق، ص150.
- 76 الصّافات، الآية: 40-43.
- 77 القدر، الآية: 1-2.
- 78 المدثر، الآية: 18-20.
- 79 الواقعة، الآية: 28-31.
- 80 الصّافات، الآية: 7-9.
- 81 نعيم اليافي، المرجع السّابق، ص151.
- 82 الحجرات، الآية: 2.
- 83 الأنبياء، الآية: 110.

- 84 طه، الآية: 108.
- 85 ينظر: محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، دط، ص416.
- 86 إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1952 ص30.
- 87 الأعراف: الآية: 38.
- 88 آل عمران، الآية: 103.
- 89 النور، الآية: 63.
- 90 عباس حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1998م، ص84.
- 91 الكهف، الآية: 45.
- 92 دقة بلقاسم، نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم - دراسة دلالية- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية و الإجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جوان 2009م، ، ص10.
- 93 جبير صالح حمادي، التصوير الفني في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1427هـ/ 2007م، ص150.
- 94 ينظر ، مصطفى مسلم ، مباحث في التفسير الموضوعي ، دارالقلم ، دمشق ط3 ، 1431 هـ ، ص57 .
- 95 برهان الدين الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ص36.
- 96 بدر الدين البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ج1 ، دارالكتاب الإسلامي، دت، ص5/8 .
- 97 جلال الدين السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ص54 .
- 98 - عبد اللطيف الوراري، نقد الإيقاع، ص205.
- 99 - الزركشي: البرهان، ص53 وما بعدها، السيوطي: الاتقان، ص610 وما بعدها
- 100 - الزركشي: البرهان، ص55.
- 101 - عبد اللطيف الوراري، نقد الإيقاع، ص206
- 102 - الزركشي: البرهان، ص61.
- 103 - ينظر: السيوطي: الاتقان، ص616.
- 104 -ينظر: تمام حسان ،البيان وروائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني ، عالم الكتب ، ط1 ، القاهرة ، 1993م ، ص283 وما يليها.
- 105 -محمد بن محمد بن الجزري، التمهيد في علم التجويد، تح: علي حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض(م،ع، السعودية)، ط1، 1985م، ص63.
- 106 - ينظر: مبارك حنون، في التنظيم الإيقاعي للغة العربية، (نموذج الوقف)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، دارالأمان، الرباط، ط1، 2010م، ص22-23.

- 107 - أبويحي زكريا الأنصاري، المقصد ما في المرشد في الوقف والابتداء، دارالمصحف، دمشق، ط2، 1985م، ص4.
- 108 - أبوجعفر النحاس، كتاب القطع والانتناف، تح: أحمد خطاب عمر، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1978م، ص97.
- 109 - سورة الماعون، الآية:4.
- 110 * ينظر: سيبويه: الكتاب، 3/314 – 4/204-206.
- 111 - ابن الجزري، المرجع السابق، ص45.
- 112 - أبو العباس أحمد بن محمد، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح: عامر السيّد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (د،ط)، 1975م، ص217.